المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
ⵜⴰⵎⵙⵙⵓⴷⵜ ⵏ ⵜⵖⴰⵡⵙⵉⵡⵉⵏ ⵏ ⵜⴷⵢⴰⵏⵜ ⴷ ⵡⴰⵡⵇⴰⴼ

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

السنن التاريخية في القرآن الكريم

Historicalways in the Holy Quran

حسن قيلي -جامعة الخرطوم

ملخص:

أدرك العقل البشري أن ساحة التاريخ لها سنن ولها قوانين، فكان عليه أن يكتشف هذه السنن والقوانين التي تسير عليها أحداث ومجريات التاريخ، وأن يتعامل معها وفق المعرفة حتى يكون إنسانا فاعلا ومؤثرا فيه. ولقد أولى القرآن الكريم عناية بالسنن التاريخية وربط إمكانية الإنجاز بمعرفة الأسباب، وكشف السنن التي تحكم الكون والتاريخ من خلال نماذج أوردها كقصة ذي القرنين ليؤكد أن سنن الله ثابتة لا تتبدل، وأن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس... وانطلاقا من هذا المبدأ كانت محاور الموضوع تدور حول سير الأمم السابقة كمدخل لفهم السنن التاريخية في القرآن، ثم السنن التاريخية رؤى وآفاق، ومن ثم التطرق إلى خصائص وصيغ السنن التاريخية في القرآن.

الكلمات المفتاحية: السنن التاريخية. القوانين. مجريات التاريخ. الطرائق الثابتة. شرائع. نواميس.

Abstract: Allah inspired the humana mindto realizethat the history has aspecificrulesand laws, soithad to discoverthoserules and laws on which are based the events and incidents of history. It shouldthereforedeal withthembyknowledge in order to be an effective and influentialhuman. The Holy Quranpaid attention to

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

historicalways and linking the possibility of achievement to knowing the reasons, and revealed the lawsthatgovern the universe and historyby citingmodels as the story of Dhul-Qarnayn to confirmthatAllah'slaws are permanent and don't change, and the fixedmethodsthatconductthe affairs inwhich are the effects, that are calledrules or laws ... On such a basis, the thematicfocus discussions on the conduct of previous nations as an introduction to understandinghistoricalways in the Quran, thenhistoricalways, visions and horizons, thenturning to the characteristics and forms of historicalways in the Quran.

Keywords : Historicalways. Laws. Incidents of histry. Fixedmethods. Rules. Laws.

●مقدمة

لقد قاوم القرآن الكريم النظرة العفوية لتفسير أحداث التاريخ، ولا يرى أن أحداث التاريخ كومة متراكمة من الأحداث، قائمةً على الصدفة، ونبه العقل البشري إلى أن ساحة التاريخ لها سنن ولها قوانين، وأنك لكي تكون إنساناً فاعلاً ومؤثراً في مجرى التاريخ لابد لك أن تكتشف هذه السنن والقوانين التي تسير علبها أحداث ومجريات التاريخ، وأن تتعامل وفق المعرفة بهذه السنن وإلا صارت حياتنا ضرباً من العبث وسيرنا خبط عشواء.

بل أبعد من ذلك . واهتماماً بالسنن التاريخية . فإن القرآن ربط إمكانية الإنجاز بمعرفة الأسباب، وكشف السنن التي تحكم الكون والتاريخ، وتأتي قصة

ذي القرنين أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، ولذلك لم يكتف القرآن بتأكيد السنن نظرياً، فذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيءٍ سبباً فاتبع سببا، لذلك كان له التمكين في الأرض، أي أن معرفة السنن والانضباط والتمسك والعمل بها هو الداعي الأساسي للنصر والتمكين في الأرض، يقول تعالى﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ... ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾...وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1] ومعنى التمكين في الأرض . كما ورد في التفسير. إعطاء المقدرة على التصرف. والسبب حقيقته: الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات تسخير[2].

وقوله﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾الكهف: 98 تذييل للعلم بأنه لابد من أجل ينتهي إليه . وهذه إشارة للسنن وتحكمها في التاريخ . أي تأجيل الله الأشياء حقاً ثابتاً لا يتخلف[3].

وفي هذا يصرح الكتاب . القرآن الكريم . أن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل، والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون

---

1 سورة الكهف: الآيات 82-98.

2ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والدار الجماهيرية للتوزيع والإعلان، (د.ت)، ج16، ص24.

3 المرجع السابق، ج16، ص40.

الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين... وعلى من طلب السعادة في هذا الاجتماع . الاجتماع البشري . أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله ويبني عليه سيرته وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه... فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولاتنفر منه[4].

وفي هذه الرؤية العميقة للإمام محمد عبده ربط للسنن التاريخية التي تسير عليها مجريات الأحداث، ووقائع الاجتماع البشري بالدين وطبيعته، فإن من طبيعة الدين تعظيم العقل البشري واهتمام بما يكتشفه، وأيما غفلة عن أصول السنن الكونية والتاريخية لا تؤّدي بالبشرية إلا إلى الخسران والشقاء.

لذا فإننا نجد أن التفسير التاريخي في النظرة القرآنية هو تفسير وفق السنن الثابتة والمطردة التي تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها، ويستطيع الناس ملاحظتها، وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها. وكما يرى همبل أن الفعل الإنساني من الظواهر التي يتم تفسيرها علياً . أي بذكر أسبابها . هذه الأسباب هي دوافع الفاعل. وإن تفسير فعل ما قام به شخص ما، بإرجاعه إلى أسبابه هو تفسير لفعل يندرج تحت قانون أي أنه تفسير تم استنباطه من فروضٍ عامة

---

4 عبده، الإمام محمد، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص284.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

تقول: ما سيفعله سائر الناس بصفة عامة، فالعلاقة بين الأفعال وأسبابها . لدى همبل . علاقة حتمية[5].

5 درويش، فلسفة العقل، مرجع سابق، ص25.



المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

سير الأمم السابقة كمدخل لفهم السنن التاريخية في القرآن

لقد خصص القرآن جانباً مقدراً ومهماً من سوره لقص سير الأمم الغابرة: (وقصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن لم يقصد بها التاريخ . بمعنى السرد والحكايات . وسرد الوقائع والأحداث مرتبةً بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلةً بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها) [6] والقصص في القرآن الكريم تأتي على أسلوب القرآن الخاص الذي لا يلتزم ترتيب المؤرخين للوقائع والأحداث ولا تنسيق الكلام حتى في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ويهز النفس للاعتبار هزاً [7]. أي أن القص في القرآن مقصده أن ينهنا إلى ما آلت إليه هذه الأمم عندما سلكت سبلاً معينة، وذلك ليس لمجرد السرد أو على سبيل الحكايات التي تروى للمتعة، وإنما ليعلمنا أن المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ تحكمها سنن تضبط مساراتها صعوداً وهبوطاً، وكذلك هي دعوة من القرآن للنظر في تاريخ الأمم السابقة لاستنباط الدروس والسنن التاريخية. وكما ورد في سورة يوسف:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [8] والعبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب. وتطلق العبرة على

---

6 خلف الله، د. محمد أحمد ، الفن القصصي في القرآن الكريم، شرح وتعليق: خليل عبد الكريم، سينا للنشر ومؤسسة الإنتشار العربي، ط4، 1999م، ص160.

7 المرجع السابق، ص160.

8 سورة يوسف: الآية 111.



ما يحصل به الاعتبار المذكور. ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفية مجازية، وهي ظرفية المدلول في الدليل فهي قارة في قصصهم سواء اعتبر بها من وفق للاعتبار أم لم يعتبر لها بعض الناس[9]. وبما أن استنباط الدروس هو أمر مستقبل لأجل ذلك كان الحديث عن المستقبل أمراً صعباً ومحفوفاً بمخاطر الخطأ لأن وقائع وأحداث المستقبل مفتوحة. فالحديث عن المستقبل يقتضي الحديث عن الحاضر وتقييمه والتقييم يقتضي البعد عن الأمر المراد تقييمه حتى تتوفر الموضوعية ولا ينبغي أن يكون البعـد بعداً كاملاً[10]. لأجـل ذلك ينبغي إن يكون السير وفق السنن المحددة، يحكم مسير الجماعات البشرية، وينبئ عما ستؤول إليه مصائرها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[11]. والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار، ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث، والوقائع، مسجلة في الآثار الشاخصة، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها.. السير على هذا النحو، ولمثل هذا الهدف، وبمثل هذا الوعي.. أمور كانت جديدة على العرب... لأنهم كانوا يسيرون سيراً عادياً للتجارة والصيد والرعي ... الخ. أما أن يسيروا وفق منهجٍ معرفي تربويٍ،

---

9 ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج13، ص71.

10 الحاوي، د. حمد عمر، منهجية التغيير لدى الحركات الإسلامية، مقدمة عامة لدكتور عبدالله حسن زروق، مركز التنوير المعرفي، ط1، 2007م، ص19.

11 سورة الأنعام: الآية 11.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

فهذا هو الجديد الذي دعاهم له القرآن [12]. يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير في تفسير ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ : (وهذا رد جامع لدحض ضلالاتهم الجارية على سنن نظرائهم من الأمم السالفة المكذبين) [13]. ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ﴾ [14]. ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ وما بعده وقوله﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ دل على أن تعقيب التمكين وما معه بالإهلاك وقع بعد أن أذنبوا. فالتقدير: فأهلكناهم بذنوبهم، أو بطروا النعمة فأهلكناهم، والإهلاك: الإفناء، وهو عقاب للأمة دالٌ على غضب الله عليها لأن فناء الأمم لا يكون إلا بما تجره على نفسها من سوء فعلها [15]. لذلك فإن القرآن قد وضع شروطاً اجتماعية للتمكين في الأرض يلاحظها الرسل وهم يقومون بإحداث التغيير، كما أن هنالك اطراداً في سنن الله التاريخية يتناغم مع الإيفاء بهذه الشروط [16] وجعل النظر مسبباً عن السير فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر،

12قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط 17، 1410هـ-1990م، دار الشروق، القاهرة بيروت، ج2، ص1045-1046.

13 ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والدار الجماهيرية للتوزيع والإعلان، (د.ت)، ج7، ص149.

14 سورة الأنعام: الآية 6.

15 التحرير والتنوير، المرجع السابق، ج7، ص139-140.

16 حامد، د. التجاني عبدالقادر، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 1995م ، ص80-81.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

ولاتسيروا سير الغافلين ومعناه كذلك إيجاب النظر في آثار الهالكين [17]. يقول صاحب التحرير والتنوير في تعليقه على الآية :﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ الآية 94 من سورة الأعراف ما يلي:(وهذه عادة الله تعالى في تنبيه عباده، فإنه يحب منهم التوسل في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ التوبة: 126. لأن الله لما وهب الإنسان العقل فقد أحب سنة أن يستعمله فيما يبلغ به الكمال ويقيه الضلال) [18] والدعوة إلى التنقيب في مصائر الأمم الغابرة هي دعوة للاتعاظ والاعتبار بالسنن التي حلت بهم لتكون الأمم الحالية على يقظةٍ مما يمكن أن يحل بهم، فتنمو بذلك حاسة اليقظة لديهم، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾) [19] وقد فتح القرآن أمام الإنسان

---

17 الزمخشري، الإمام أبي القاسم جارالله محمد محمود بن عمر بن محمد، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، رتبه وضبطه وصححه، محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003م 1424هـ، ج2، ص8.

18انظر التحرير والتنوير، ج 9، ص16-20.

19 سورة غافر: الآيات 21-22.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X


المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

المعرفة بالتاريخ وأكد على قيمته والنظر إليه كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [20]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [21] هذه الآيات التي كشفت قيمة المعرفة التاريخية ركزت أيضاً على مفهومين بينهما تلازم وثيق هما مفهوم ﴿يَسِيرُوا﴾ ومفهوم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ الأول يشير إلى الجهد الحسي والمادي، والثاني يشير إلى الجهد الذهني والفكري، والقرآن الكريم أسس منهجاً جديداً في النظر إلى التاريخ على أساس الاعتباروالاتعاظ، وتكوين المعرفة واكتشاف السنن والقوانين. والاعتبار بمعنى العبور من الماضي إلى الحاضر، والاتعاظ لا يتحقق إلا بالنظر إلى الحاضر، واكتشاف السنن والقوانين من أجل النظر للمستقبل والتحكم في الخيارات. كما قص الله في سورة الأعراف قصص الأنبياء وأفاض في ما لاقوه من أقوامهم وما ترتب عن مخالفة أقوامهم لهم في سنن الله إلى أن قال: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿ ١٠١﴾

20 سورة الروم: الآية 9.

21 سورة الحج: الآية46.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
ⵜⴰⵎⵀⵍ ⵏ ⵜⵎⵓⵖⵍⵉⵡⵉⵏ ⵜⵉⴷⵉⵏⵉⵏ ⴷ ⵜⵓⴼⵉⵔⵉⵏ
المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[22] وكذلك في سورة يونس الآيات71-102 فقد قصّ الله تعالى قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم وما آلت إليه مصائر هؤلاء الأقوام جراء مخالفتهم لسنن الله التي جاء بها هؤلاء الأنبياء إلى أن وصل إلى قوله تعالى:﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾[23] وكذلك في سورة هود الآيات 25-وحتى نهاية السورة الآية 123 فقد استعرض القرآن وبتركيزٍ واستفاضة أنباء الرسل وأقوامهم وحواراتهم حول السنن المتحكمة في سير التاريخ، من سنن المصابرة والتقوى... وعواقبها الحميدة، والسنن في قضايا الفساد في الاقتصادوالانحراف في الأخلاق والظلم الاجتماعي والطغيان السياسي... الخ وعواقبها السيئة المرتبة عليها. ومؤكداً أن:﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[24]، أي أن من يتنكب الطريق وذلك بمخالفة السنن التاريخية هو الظالم لنفسه. وكذلك في سورة يوسف قوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

22 سورة الأعراف: الآية 101-102.
23 سورة يونس: الآية 102.
24 سورة هود: الآيات 100-101.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [25]. ألم يسيروا فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم، وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم، وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي تعقلون فتتدبروا سنن الله في الغابرين. ولذلك يخاطب الله الذين يجهلون هذه السنن . سنة إرسال الرسل لإنذار الناس . وغيرها ويدعوهم إلى السير في الأرض والنظر في آثار الغابرين نظرة التأمل والتفكر التي تهز القلوب الغافلة، ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون [26].

كل ذلك يؤكد أن سنن الله التاريخية ماضية على كل الجماعات البشرية وسائر الأمم على امتداد التاريخ. وفي سورة الكهف يتحدث القرآن عن : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ [27]. أي أن الإهلاك للأمم سنة متواترة وماضية، فأيما قرية . دولة، أمة،... الخ . ظلم أهلها فإن سنة الإهلاك مترتبة على ذلك الظلم. ثم تواترت الآيات مارةً بقصة ذي القرنين وربطها للأسباب بالمسببات.

وفي سورة الحج قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

25 سورة يوسف الآية 109.

26 في ظلال القرآن، ج4، ص2035.

27 سورة الكهف: الآية 59.

المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59



مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[28]

والأخذ بالذنوب والإهلاك مصدره هو: أن الثراء والترف واستحواذ الثروات ينطوي بالضرورة على الظلم. وأن الذي يجمع الثروة على ظلمٍ يجمع معها أسباب فنائها، فإذا أقام على ذلك سلطاناً سياسياً فهو سلطان يحمل في أحشائه أسباب فنائه، وهو معنى الأخذ بالذنوب الذي يتكرر في القرآن[29].

إن مصارع الغابرين حيال الأمم الحالية شاخصة موحية بالعبر وتنطق بالعظات . أن ثمة سنن في التاريخ ماضية في كل الأمم التي تفعل فعل من اندرسوا . فهل ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنن لا تتخلف ولا تتبدل ﴿ أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة[30].

وفي سورة المؤمنون قوله تعالى:﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ ﴿٤٢﴾مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا

28 سورة الحج: الآيات 45-46.

29 حامد، د. التجاني عبدالقادر، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1،1995م، ص118.

30 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص4302.

جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[31].الآيات تدل على أنه كان من سنة الله إنشاء قرنٍ بعد قرن وهدايتهم إلى الحق بإرسال رسولٍ بعد رسول وهي سنة الابتلاءوالامتحان، وكذلك من سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنة الله ثانياً. وهي سنة المجازاة. تعذيب المكذبين واتباع بعضهم بعضا[32].

ويرى صاحب التحرير والتنوير أن المقصود بيان اطراد سنة الله تعالى في استئصال المكذبين رسله المعاندين في آياته. ولا يقال تترا إلا إذا كان بين الأشياء تعاقب مع فترات وتقطّع. ومنه التواتر وهو تتابع الأشياء وبينها فجوات. والوتيرة: الفترة عن العمل "وجعلناهم أحاديث" أي صيرناهم أحدوثات يتحدث بها الناس بما أصابهم. وهو كناية عن إبادتهم. وهذا هو المقصود بالاستئصال[33].

وتناولت سورة النمل سنن بعض الأنبياء وما حاق بأقوامهم نتيجة مخالفة مادعاهم له هؤلاء الأنبياء من ضرورة اتباع السنن إلى أن يصل إلى قوله تعالى﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[34]

---

31 سورة المؤمنون: الآيات42-44.

32 الطبطبائي، العلامة محمد حسين ، الميزان في تفسير القرآن،منشوراتالأعلمي للمطبوعات، بيروت،ط1، 1991م ،ج15، ص 33-34.

33 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج18، ص61-62.

34 سورة النمل: الآيات 51-52.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

وفي سورة القصص التي كرست لقصة موسى عليه السلام فقد طرحت السورة قضية السنن التاريخية من خلال المدافعة السياسية والاقتصادية، خلصت السورة إلى أن الطغيان السياسي والبطر الاقتصادي يؤديان إلى الهلاك كسنة تاريخية متحققة في أي أمةٍ تسير في طرقهما وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [35] وفي سورة الروم يتحدث القرآن عن أن إعمار الأرض وخرابها له سنن لا تتخلف هي أن هذا العمران والخراب هو من كسب الناس، وينبغي للناس أن يعتبروا من عاقبة الإفساد التي أحدثتها الأمم السالفة في الأرض يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿ ٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [36] فالله قد جعل الأرض للناس وأصلحها بإنزال الوحي وبعث الرسل فمن خرج على الوحي أوعطله فقد أفسد في الأرض. وإفساد الأرض هو إخلال بأحد شروط التمكين فيها والتي من أخل بها جرت عليه سنة الله بإزاحته واستخلاف قوم آخرين يكونون

---

35 سورة القصص: الآيات 58-59.

36 سورة الروم: الآيات 41-42.

أكثر إعماراً وإصلاحاً. وصور الفساد في الأرض تتعدد من قومٍ إلى قوم ومن مكانٍ إلى مكان آخر[37]. وفساد البر بفقدان منافعه (من أمنٍ وطعامٍ وشراب وغيرها) وحدوث مضاره (من ظلمٍ وفسادٍ اجتماعي وطغيانٍ سياسي وتلوثٍ بيئٍ ونشر لأسلحة دمارٍ شاملٍ وغيرها وغيرها....الخ)

وفي سورة العنكبوت يرد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[38]

في الآية إشارة إلى سنة الله في سالف أهل الإيمان والمتبعين لسنن الله التاريخية في الإصلاح من أنه لابد من تعرضهم للفتن والامتحانات. وقد أسندت الآية فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسناداً مجازياً لأنه خالق أسبابه كما خلق أسباب العصمة منه لمن كان أهلاً للعصمة من مثله، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أن الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها...والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد[39].

وفي دعوة للانتباه للسنن التاريخية التي ينبغي للأمم أن تلتفت إليها وتعتبر بها حتى لا يحيق بها ماحاق بالأمم السابقة يدعو القرآن إلى:﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

---

37 حامد، د. التجاني عبدالقادر، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1،1995م ، ص81.

38 العنكبوت: الآية3.

39 تفسير التحرير والتنوير، ج20 ، ص203-204.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ٢٦﴾[40]

كما تتحدث سورة غافر عن أن مخالفة السنن التي يأتي بها الرسل تحيق بالأمم لامحالة في ذلك، وأن الناس مهما كانت أعدادهم كبيرة وقوتهم شديدة وآثارهم بارزةً على الأرض فإن ذلك لا يعفيهم من بأس الله إن هم لم يتبعوا سننه يقول تعالى: ﴿ أَفلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)[41]

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال من يسأل لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا، فالجواب أن ذلك تقدير قدّره الله للأمم السالفة أعلمهم به وشرطه عليهم فهي قديمة في عباده لا ينفع الكافر الإيمان عند ظهور البأس. أي أن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم من بأس الله. وجملة ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

40 سورة السجدة: الآية 26.

41 سورة غافر: الآيات 82-85.

بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية مفرعة على جملة كانوا أكثر منهم أي كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله بالبينات فلم يصدقوهم . أي لم يتماشوا مع فطرة الله التي هي دين رسلهم . والفطرة سنة من سنن الله التاريخية[42].

أي أن التحايل على السنن التاريخية بعد أن تكون قد مضت هذه السنن لا ينفع الأمم ولا ينجيها من العذاب والهلاك.

ويقول تعالى في سورة ق:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴿٣٧﴾[43]

الحقيقة . السنة التاريخية الماضية . هي هي. ولكنها في صورتها الأولى. ثم يضيف إليها حركة القرون وهي تتقلب في البلاد، وتنقب عن أسباب الحياة، وهي مأخوذة في القبضة التي لا يفلت منها أحد، ولا مفر منها ولا فكاك ف ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي هل من طريق للفكاك من سنن الله الماضية في التاريخ[44].

كما أن القرآن دائماً ما ينبه الناس لضرورة التفكر والوعي بمقاصد الأشياء يقول تعالى:﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[45]

---

42 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج24، ص222-223.

43 سورة ق: الآيات 36-37.

44 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص3366.

45 سورة الحاقة: الآية 12.

وفي الآية إشارة إلى الهداية الربوبية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل

عليه قوله تعالى:﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[46].

وقوله﴿:الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾)[47]. أي أن هداية الأشياء نحو كمالاتها من السنن الألهية[48].

وفي هذا المفهوم. أي أن من السنن هداية الأشياء نحو كمالاتها. تعميق لمفاهيم السنن وشمولية لآثارها وامتداد لعلميتها.

---

46 سورة طه: الآية 50.

47 سورة الأعلى: الآية2 -3.

48 العلامة الطبطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج19، ص411.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

السنن التاريخية رؤى وآفاق

يرى الشيخ محمد عبده أن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لنستمد ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه[49].

كما يؤكد الشيخ محمد عبده أن: (العلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وتدلنا عليه أحوال الأمم، وأمرنا القرآن أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها)[50]

وعلى كلٍ فهذا الكون تصرفه سنن مطردة لا تتحول أمام اعتبارٍ فرديٍ، وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون، وإنما هي السنن المطردة الثابتة[51].

ورد في سوره آل عمران قوله تعالى:﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾[52]

أي مضت قوانين إلهية مما سنه الله من السنن التي تجري على خلقه وبإرادته وقدرته ومنها ما هو خاص بالأنبياء والمرسلين ومنها ماهو خاص بالمؤمنين

---

49 من مقدمة كتاب سنن القرآن لهيشور، مرجع سابق، ص9.

50 المرجع السابق، ص9.

51 قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، مرجع سابق، ص 2246.

52 سورة آل عمران: الآية 137.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X


المجلد15 / العدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

وماهو عام في شئون الأمم وتقلباتهم نحو الوحدة والتفكك والتحضر والتخلف والسعادة والشقاء.

والمعنى كما يراه صاحب التحرير والتنوير هو: قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدةٍ، هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء زائل والعاقبة للمتقين المحقين، لذلك قال فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها.

قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم مالا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره[53].

وكذلك في الآية أن هنالك قوانين إلهية مما سنه الله من السنن التي تجري على خلقه وبإرادته وقدرته، من اكتشفها استطاع أن يعرف الحاضر ويتحسس المستقبل. ويرى صاحب الظلال في :﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، أن:(السنن هي هي التي تحكم الحياة. وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة، فما وقع منها في غير زمانكم سيقع مثله . بمشيئة الله . في زمانكم، وما انطبق منها على

53 ابن عاشور، تفسير التحريروالتنوير، مرجع سابق، ج3-4-5، ص 96-97.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فالأرض كلها واحدة. والأرض كلها مشروع للحياة البشرية. والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر.[54]

وحينما انهزم المسلمون في معركة أحد فإن القرآن تحدث عن هذه الحادثة باعتبارها قضية شروط موضوعية فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[55]

وهنا تحدث القرآن عن أن النصر والهزيمة ترتبطان بسنن التاريخ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية بحسب منطق السنن التاريخية تفرض أن ينتصروا، وخسروا في أحد حينما كانت الشروط الموضوعية أن يخسروا. وعلينا . حسب الآية . ألا نتخيل أن النصر حقٌ إلهي للمؤمنين من غير توفر شروطه، وإنما النصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية له بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً و تشريعياً. بل إن القرآن في سبيل تأكيد أن التاريخ تحكمه سنن لا تتبدل، يهدد الجماعة البشرية بأنها إن لم تقم بدورها فإن سنن التاريخ سوف تعزلهم وتأتي بأمم أخرى تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تلعب هذا الدور يقول

---

54 قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج1، ط17، 1410هـ-1990م، دار الشروق، القاهرة بيروت،ص479.

55 سورة آل عمران: الآية 140.

تعالى:﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[56]. وكما يرى صاحب تفسير الميزان أن: (المداولة جعل الشيء يتناوله واحد بعد آخر فالمعنى: أن السنة الإلهية جرت على مداولة الأيام بين الناس من غير أن توقف على قوم ويذب عنها قوم لمصالح عامة تتبع هذه السنة)[57].

كما يرد في ذات السياق الذي هو تأكيد على أن مجريات التاريخ تتحكم فيها سنن لا تتبدل في قوله تعالى:﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[58]. بمعنى أنك لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلاً[59]. ويرى صاحب الميزان أن: (السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالباً أودائماً . فإن معنى الآية يصبح . فكلما بالغ القوم في الإفساد وإلقاء الاضطراب بين الناس وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك . وهي سنة الله التي جرت في الماضين . ولن تجد لسنة الله تبديلاً فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم)[60]. وفي سورة الأحزاب كذلك يرد قوله تعالى:

---

56 سورة التوبة: الآية 39.

57 العلامة الطبطبائي، تفسير الميزان، ج1، مرجع سابق، ص28-29.

58 سورة الأحزاب: الآية 62.

59 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج22-23-24، ص111-112.

60 تفسير الميزان، مرجع سابق، ج16، ص346.

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [61] فهو أمرٌ (يمضي وفق سنة الله التي لا تتبدل، والتي تتعلق بحقائق الأشياء، لا بما يحوطها من تصوراتٍ مصطنعة لا تقوم على أساس﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

فهو نافذٌ مفعول، لا يقف في وجهه أحد، منظورٌ فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه... وسنة الله هذه قد مضت في الذين خلوا من قبل)[62].

وكذلك يرد في قوله تعالى:﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[63]. أي ذلك كائن لا محالة لأننا أجريناه على الأمم السالفة ولأن عادتنا لا تتحول، والتحويل هو تغيير الحال وهو التبديل[64].

(والتحويل نقل الشيء من حالٍ إلى حال، سنة أي كسنة من قد أرسلنا وهو متعلق بقوله﴿ لَا يَلْبَثُون﴾في الآية السابقة، أي لايلبثون بعدك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا. وهذه السنة وهي إهلاك المشركين الذين أخرجوا رسولهم من بلادهم وطردوه من بينهم سنةً لله سبحانه، وإنما نسبها إلى رسله لأنها مسنونةً لأجلهم بدليل قوله:﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾)[65]. وقد قال

---

6 سورة الأحزاب: الآية 38.

62 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج5، ص 2870.

63 سورة الإسراء: الآية 77.

64 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج 13-14-15، ص 180-181.

65 العلامة الطبطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج13، ص170-171.

تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾[66] والمعنى: وإذاً نهلكهم لسنتنا التي سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا وأجريناها ولست تجد لسنتنا تحويلاً وتبديلاً. ويرد في قوله تعالى:﴿يُرِيدُاللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[67]. يريد الله أن يكشف لكم أيها الناس في كل زمانٍ ومكان عن حكمته في الأولين، ومع الآخرين ويبين لكم منهج الاستقامة حتى يعينكم على تجنب المزالق وعلى التسامي في الرقي الحضاري[68].

أي أن الله يريد أن يبين لكم ماخفي عنكم من مصالحكم وأفضل أعمالكم، ويهديكم مناهج وطرق حياة من كان قبلكم من الأنبياء والأمم العادلة الصالحة الذين سلكوا النهج القويم الذي به تسعد الأمم[69].

وقوله تعالى:﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾[70]. أي أن السنن التاريخية شاملة لكل

66 سورة إبراهيم: الآية 13.
67 سورة النساء: الآية 26.
68 في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص631.
69 هيشور، سنن القرآن، مرجع سابق، ص38.
70 سورة الكهف: الآية 55.

الناس وذلك لعموم لفظ الهدى الذي يشمل هدى القرآن وماقبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلها، فكانت هذه الجملة قياساً تمثيلياً بشواهد التاريخ وأحوال الأمم. وإسناد منعهم الإيمان إلى إتيان سنة الأولين إسناد مجاز عقلي. والمراد: ما منعهم إلا سبب إتيان سنة الأولين لهم. وسبب ذلك التكبر والمكابرة، أي أنه لا يوجد مانع يمنعهم الإيمان يخولهم المعذرة به ولكنهم جروا على سنن من قبلهم[71]. بمعنى أن مخالفة السنن التاريخية من أي أمة هي هي مخول أن تحيق . بالأمة المعينة في أي وقت وفي أي مكانٍ . العذاب.

وفي سورة الأنفال يرد قوله تعالى:﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾[72]

أي لقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين، وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين.. وهذه السنة ماضية لا تتخلف[73].

والمراد بالعود ليس أن يعودوا إلى الكفر لأنهم لم يغادروه، وإنما العود لمناوأة الرسول . ومخالفة ما تقتضيه السنن التاريخية . وهذا الخبر تعريض

71 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج13-14-15، ص349-352.
72 سورة الأنفال: الآية 38.
73 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1508.

بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون، والقرينة على إرادة التعريض بالوعيد أن ظاهر الاخبار بمضي سنة الأولين، هو من الاخبار بشيءٍ معلوم للمخبرين به[74].

وفي سورة هود يرد قوله تعالى:﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[75] وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله . أي إخراجهم عمّا تقتضيه السنن . في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلالوالاختلال[76]. وفي سورة الحجر قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[77] في هذه الآية تعريض بالتهديد بأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية معاملة النظير بنظيره، لأن كون سنة

---

74 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج8-9، ص345-346.

75 سورة هود: الآيات 116-117.

76 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج، ص1932-1933.

77 سورة الحجر: الآيات 12-13.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

الأولين مضت أمرٌ معلوم غير مفيد ذكره، فكان الخبر مستعملاً في لازمة بقرينة تعذر الحمل على أصل الخبرية... وإضافة السنة للأولين باعتبار تعلقها بهم، وإنما هي سنة الله فيهم[78].

78 تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج13-14-15، ص24-25.

وفي قوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [79] بينت الآية أن عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لايبدلها ولا يحولها، أي: لا يغيرها، وأن ذلك مفعول له لا محالة، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن: من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم [80].

والأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها الناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية، محصورة في فترة قصيرة من الزمان، وحيزٍ محدود من المكان. ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس [81]. وفي سورة الفتح ورد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [82]

---

79 سورة فاطر: الآية43.

80 الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج3، ص600-601.

81 قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج5، ص 2949-2950.

82 سورة الفتح: الآيات 22-23.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

وهكذا يربط القرآن نصرهم . المؤمنين . وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل [83]. وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن سنن النصر والهزيمة محكومة . وفق السنن التاريخية . بشروطٍ موضوعية لا تحابي الناس بموقعهم الإيماني وحسب وإنما وفق تحقق تلك الشروط، والالتزام بمقتضيات ومستلزمات النصر والتمكين.

83 في ظلال القرآن، مرجع سابق،ج6، ص 3327.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

خصائص وصيغ السنن التاريخية في القرآن

إن مصطلح التاريخ يعني ببساطة رصد فعاليات الإنسان في المكان عبر الزمان، فضلاً عن تحليلها وتفسيرها بعد اكتشاف القوانين التي تحكم صيرورتها التاريخية[84]. لذلك يأتي هذا الجزء من البحث، والذي هو بمثابة خلاصات لما تقدم من فصول البحث الأولى حول قضايا الضرورة وجدليات الصدفة والصراع والحتمية والفعل التاريخي والقوانين التاريخية ومسارات التقدم بين الفلسفة والقيم... الخ كما يأتي مكملاً وهادياً لقضايا التفسير والتنبؤ التاريخيين، أي يأتي كموجهات ونتائج لقضايا المعرفة التاريخية مع قدر من التركيز والمحاولة للوصول إلى كليات السنن والقوانين التي تحكم وتتحكم في مسيرة التاريخ البشري. ذلك أن السنن التاريخية متناغمة مع الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، كما أنها تعبر عن إرادة الله في التاريخ يحققها الإنسان بسعيه وفق شروط وجدليات تم تفصيلها في الفصول السابقة من البحث. كما أن فرضيات البحث تزعم أن التصور السنني للتاريخ محكوم بقوانين وسنن ونواميس لها صفات حتمية وحاسمة: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٦٢﴾. وأن سريان هذه القوانين ليس عبثاً إنما هو محكوم بأسباب وعلل، قال تعالى:

84 إسماعيل، د. محمود، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 1988م، ص17.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. ولذلك لم يغب عن فطنة عالم بصير مثل ابن خلدون الوقوف على "العبر" المستخلصة من القصص القرآني. خاصة وأنه نبه في مقدمته الخالدة إلى مقولة "الحاسة التاريخية" عند المؤرخ باعتبارها (بوصلة) تقود إلى المعرفة الحقة[85].

85 المرجع السابق، ص21-23.

خصائص السنن التاريخية

ترتبط السنن التاريخية كما يطرحها القرآن الكريم بقضايا التسخير.. بمعنى أن معرفتنا بالسنن تجعلنا أقدر على تسخير الكون من حولنا، وأقدر على التحكم فيه، والاستفادة منه، وتصريف ش ؤوننا، والمقدرة على امتلاك ناصية التاريخ الذي نحن فاعلوه، وارتياد آفاق الحضارة واكتشاف طرائق التغيير وتجنب منزلقات الحضارات. كما ترتبط كذلك بقضايا المسئولية البشرية بمعنى أن السنن لا تعفي أمةً من الأمم ولا فرداً من الأفراد من المسئولية التاريخية ومسئولية صنع الأحداث التاريخية والتأثير في مجرياتها وفق ما تقتضيه سننها المحددة . كما سيرد . وعدم التمييز بين الناس بأي سببٍ غير مقتضيات السنن التاريخية، كما تنفي . السنن التاريخية . أي أسطورةٍ عن محاباة الله لفردٍ دون آخر ولا شعب دون سائر الشعوب، وإنما هي معممة على أفراد وشعوب البشرية جميعاً، من سلك هذه السبل سارت به إلى تلك النتائج ...ألخ. وكل ذلك لا يتم إلا بمعرفة السنن التي تتحكم في هذه العمليات ومعرفة خصائص هذه السنن والحقائق المتصلة بها ومن أهم هذه الخصائص والحقائق المتصلة بالسنن التاريخية وفق الرؤية القرآنية:.

أولاً: الثبات والشمولية والاطراد

المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

إن الاعتبار بالأمم السابقة والغابرة الذي يحثنا عليه القرآن . والذي تحدثنا عنه فيما سبق . يغدوا عبثاً وبلا فائدة لو لم تكن السنن التي تحكم حياة الأمم والأفراد ثابتة ومطردة، يمكن أن تتكرر كلما توافرت شروطها وانتفت الموانع التي تحول دون تحققها و بما أن السنة هي العادة . كما سبق ذكره . وكما ورد في قوله تعالى:﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴿ ٤٣ ﴾[86]

ويعني بها التكرار والمداومة اللذان يكسبان النفس قوى اعتبارية تحملها على نمطٍ ثابت من العمل.

وقد بين ابن تيمّية مفهوم السنة في القرآن بأنها: (العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني ما فعل في الأول)[87].

كما أنه يرى . ابن تيمية . أن قصص المتقدمين صارت عبرة لنا. ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[88].

86 سورة فاطر: الآية 43.

87 ابن تيمية، الفتاوى، مرجع سابق، ج13، ص19-20.

88 ابن تيمية، جامع الرسائل، مرجع سابق، ص55.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

كما أن للسنة جانب معنوي . غير الجانب المنهجي الذي هو كون العمل أو التصرف المقصود يشكل أسلوباً جديداً . ويقصد به المداومة والاستمرار على اتباع ذات الأسلوب بصفة متكررة ومطردة[89].

كما أن سائر معاني السنة تنضبط في أنها أسلوبٌ مطردٌ في الحركة والتتابع، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، ولذلك ورد في مقاييس اللغة السين والنون أصلٌ واحد مطرد وهو جريان الشيء واطراده في سهولة[90].

والسنن . ومنها التاريخية . في الوجود باقية على حالها منذ خلق الله السماوات والأرض، وهي مستمرة على هذه الحال من الثبات. ولولا ثبات السنن لما أمكن للناس أن يسخروا الكون ويستفيدوا منه، وينشئوا الحضارات، كما أن هذا الثبات متساوق مع استخلاف الإنسان لعمارة الأرض﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[91]

وثبات السنن التاريخية الوارد في القرآن يعني إرتباط الأسباب بالمسببات، أو ارتباط العلة بالمعلول، ارتباطا ضرورياً لا ينفصم، فقد اقتضت حكمة الله أن يكون له وراء كل معلولٍ علة يرتبط بها وهذا ما يعطي السنن صفة الثبات[92].

89شوقار، الإطار المعرفي للسنن، مرجع سابق، ص6.

90 المرجع السابق، ص7.

91 سورة هود: الآية 61.

92 كنعان، السنن، مرجع سابق، ص69.

وثبات السنن هو الذي جعل الكون والحياة على استقرار وتوازن﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾[93].

وإذ لولا ثبات السنن كيف يستخلف الله الإنسان في عالم لا تحكمه قوانين ولا تضبطه سنن. وأي تأخر أو اهتزاز في نفاذ السنن، سوف يؤدي إلى تميع الحركة التاريخية وعدم انضباطها... ومن أجل ذلك يبين القرآن في أكثر من موضع ثبات السنن ونفاذها وعدم تحولها أو تبدلها، لأنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم.. ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ[94].

والاطراد في اللغة هو التتابع والتسلسل، واطراد السنة تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت موانعها التي تحول دون تحقيقها، فالمطر. مثلاً. يهطل "بإذن الله" كلما تلبدت الغيوم في السماء وتهيأت الظروف الجوية المواتية، والحجر يسقط كلما ألقينا به في الفضاء، واليد تحترق كلما لامست النار وهكذا[95].

والاطراد بمعنى أن السنة التاريخية مطردة ليست عشوائية ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون وعلى

93 سورة القمر: الآية3.

94 خليل، د.عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،فرجينيا، 1410هـ 1991م، ص68-69.

95 كنعان، السنن، مرجع سابق، ص76-77.



السنن العامة، والتأكيد على طابع الاطراد في السنة تأكيد على الطابع العلمي للقانون التاريخي، لأن القانون العلمي أهم ما يميزه عن بقية المعادلات والفروض هو الإطراد والتتابع وعدم التخلف.

ومن هنا استهدف القرآن التأكيد على طابع الاطراد في السنن التاريخية، وهو استهداف من أجل التأكيد على الطابع العلمي لهذه السنن[96].

وهناك آيات كثيرة في القرآن أشارت إلى صفة الاطراد في سنن الله التاريخية منها قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[97] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[98] ومنها قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾[99] ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[100]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[101]. هذه النصوص القرآنية تقدم استعراضاً تؤكد فيه طابع الاستمرارية والاطراد أي طابع الموضوعية والعلمية للسنن التاريخية، كما تستنكر

---

96 الصدر، محمد باقر، مقدمات في التفسير الموضوعي ، مرجع سابق، ص60-61.

97 سورة الأحزاب: الآية 62.

98 سورة الإسراء: الآية 77.

99 سورة الأنعام: الآية 34.

100 سورة محمد: الآية 7.

101 سورة البقرة: الآية 214.

بعضها أن يكون هناك تفكير أو طمع لدى جماعة من الجماعات بأن تكون مستثناة من سنن التاريخ.

ومنها كذلك وفي إشارة واضحة إلى أن الأمر ليس بالتمني وإنما هي قوانين ثابتة لا تتبدل وسنن مطردة لا تتخلف قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[102]

كما أن الآية السابقة وغيرها تشير إلى خاصية الشمولية التي تتصف بها السنن التاريخية، بمعنى أن السنن التاريخية يخضع لها كل الناس بل كل ما في الكون وألا شيء في الوجود مستثنىً من هذه السنن مثل قوله تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [103]. ومعنى الآية أن السنة التاريخية "شاملة" تنطبق على كل البشر بدليل أن كلمة "قوم" ومجيئها نكرة في الآية يدل على مطلق قوم[104].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[105]

والآية وإن كانت تخاطب المسلمين إلا أنها استعملت كلمة الناس أي البشر كلهم، لأن هذا من السنن العامة "الشمولية" فلا تختص بالقوم المتحدث عنهم[106].

---

102 سورة النساء: الآية 123.

103 سورة الأنفال: الآية 53.

104 سعيد، جودت، حتى يغيروا مابأنفسهم، دار الفكر المعاصر، بيروت،1414هـ ، 1994م، ص51.

105 سورة آل عمران: الآية 140.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

وفي اطراد السنن التاريخية يقول ابن القيّم: (لهذا يذكر الشارع العلل والأوصاف المؤثرة، والمعاني المعتبرة، في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدلك . المتتبع للسنن التاريخية . على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضائها، ويوجب تخلف أثرها عنها[107].

وهذا النص مبين بصورة لا لبث فيها لاطراد السنن التاريخية في القرآن . لأن الحديث عن الشارع يأتي بالدرجة الأولى من القرآن الكريم . وأنها لا تتخلف أنّى تحققت شروطها، وأنه متى وجدت الأسباب تبعتها المسببات.

والاطراد والثبات في السنن التاريخية لا ينفيان المشيئة الإلهية أو يعطلانها، وإنما السنن التي تحكم وتتحكم في الكون والإنسان والتاريخ ماهي إلا قدر من أقدار الله فهو الذي قدّرها وأراد لها أن تعمل على هذا الثبات والاطراد ليستقر بها أمر الإنسان وليستطيع تسخير الحياة والتاريخ.

ثانياً:الطابع الرباني للسنن التاريخية

106 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج13-14-15، ص100.

107 ابن قيّم الجوزية، الإمام شمس الدين محمد أبي بكر، أعلام الموقعين عن رب العالمين، مجلد1، دار الفكر، بيروت، ط2، 1977م، ص196.

لقد ربطت كثيراً من آيات القرآن السنة بالله تعالى فنجد في قوله تعالى:﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾[108] وقوله تعالى:﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[109] وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾[110]

أي أن السنة التاريخية ربانية مرتبطة بالله، سنة الله ، كلمات الله، على اختلاف التعبير، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ، هو كلمة الله، هو قرار رباني يستهدف شد انتباه الإنسان حينما يريد الاستفادة من القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات ، ليست انعزالاً من الله لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن، ولأن هذه السنن والقوانين هي إرادة الله وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون، وحتى عندما ترد صيغ أخرى للسنن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[111]. وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[112]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾[113]. وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ

---

108 سورة الأحزاب: الآية38.

109 سورة فاطر: الآية43.

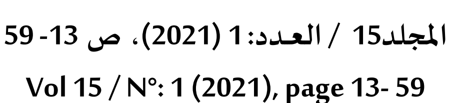
110 سورة غافر: الآية 85.

111 سورة الأنفال: الآية 38.

112 سورة الحجر الآية 13.

113 سورة آل عمران: الآية 137.

المجلد15 / العـدد:1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59




مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[114]. فإن إضافة السنة للأولين أو من قد خلوا أو من قبلكم باعتبار تعلقها بهم، وإنما هي سنة الله فيهم[115].

وارتباط السنن التاريخية بالله وبالغيب ليس معناه الاتجاه للتفسير الإلهي للتاريخ الذي تتبناه بعض المدارس اللاهوتية التي فسرت التاريخ تفسيراً إلهياً الذي يربط الحادثة ربطاً مباشراً بالله قاطعاً صلتها وروابطها مع بقية الحوادث. القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة التاريخية وينتزعها من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء، ولا يطرح صلة الحادث بالله كبديل لانطباق الأسباب والمسببات على أحداث التاريخ المختلفة، يقول تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[116]، هذه الآية نسبت سنن نزول المطر لله تعالى وفي ذات الوقت أوضحت أن هذه السنن متساوقة وهي خطوات تتبعها ظاهرة نزول المطر ولكن . مثلاً: قد يأتي إنسان فيفسر ظاهرة المطر التي هي ظاهرة طبيعية فيقول بأن المطر نزل بإرادة الله، ويجعل الإرادة بديلاً عن الأسباب الطبيعية . أي سنن الطبيعية . التي ينجم عنها نزول المطر، وكأن المطر حادثة لا علاقة لها بالأسباب وإنما هي

---

114 سورة النساء: الآية26 .

115 ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج13-14-15، ص25.

116 سورة النور: الآية 43.

حادثة مفردة ترتبط مباشرة بالله بمعزل عن السنن المتحكمة في الظاهرة، مما يتعارض مع التفسير العلمي السنني لظاهرة نزول المطر. أما إذا جاء إنسان آخر وقال بأن ظاهرة المطر لها أسبابها وعلاقاتها وأنها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء، يتبخر فيتحول إلى غاز والغاز يتصاعد سحاباً والسحاب يتحول بالتدريج إلى سائل نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر، فكل هذا التسلسل المتقن هو تعبير عن حكمة الله وتدبيره، فإن هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمي والتفسير الموضوعي لظاهرة المطر لأننا هنا ربطنا السنة بالله[117].

ثالثاً: الطابع الإنساني للسنن التاريخية

لقد أكد القرآن الكريم على اختيار الإنسان وإرادته، إلا أن ما ورد سابقاً في بحثنا هذا من ثبات السنن التاريخية واطرادها قد يخلق ما يمكن أن يسمى تعارضاً بين السنن التاريخية وحرية الإنسان، إذ كيف نقول بأن التاريخ تحكمه سنن وقوانين ثابتة لا تتبدل وأن للإنسان حريةً في الاختيار؟ فإما أن نقول أن الإنسان حر ومختار وإما أن نقول أن التاريخ له سنن تحكمه وقوانين يسير عليها!. ولكن القرآن أزال هذا التعارض الوهمي إذ يقول تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

117 التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 62-67، وكذلك السنن التاريخية في القرآن لمحمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1409هـ. 1989م، ص83-93.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X



المجلد15 / العدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ [118]. كما يقول: ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [119]. كما يقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [120]. وكل هذه الآيات تبين أن السنن التاريخية لا تجري من وراء اختيار الإنسان وإنما هي سنن تجري باختياره ووفق إرادته. كما أنها تؤكد أن للإنسان مواقف إيجابية تمثل حريته واختياره وتصميمه في الفعل رغم ثبات السنن واطرادها وشموليتها.

---

118 سورة الرعد: الآية 11.

119 سورة الجن: الآية 16.

120 سورة الكهف: الآية 59.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

صيغ السنن التاريخية في القرآن الكريم

يعبر القرآن الكريم عن السنن التاريخية بعدة أشكال ويصيغها بعدة صيغ وقد أحصى محمد باقر الصدر صيغ أساسية تتخذها سنن التاريخ في مفهوم القرآن الكريم وهي[121]:

1/ شكل القضية الشرطية

في هذا الشكل تأخذ السنة التاريخية صيغة القضية الشرطية التي تربط بين مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية الصلة بينهما صلة موضوعية فإذا حدث الأول لابد من حدوث الثاني، كأنها قضية الشرط والجزاء فمتى ما حدث الشرط حدث الجزاء. وهذا الشكل الموضوعي مثل: أنه إذا غليت الماء إلى درجة الغليان فإنه يتبخر، أي أنه متى ما عرضت الماء لدرجة مائة . درجة الغليان . فإنه يتحول من سائل إلى غاز. فهذا القانون مصاغ على شكل القضية الشرطية. وواضح أن هذا الشكل لا ينبئنا عن أن الماء سيتعرض للحرارة أم لا! وأن درجة الحرارة للماء إذا ما تعرض لها ستصل مائة أم لا! وإنما هو ينبئنا انه متى ماتحقق الشرط . غليان الماء لدرجة مائة . تحقق الجزاء، تبخر الماء.

وعلى هذا فإن القرآن الكريم يتحدث عن: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[122]. وهذه الآية تصيغ السنة التاريخية على شكل قضية

---

121 أنظر بالتفصيل: الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف، بيروت، 1409هـ . 1989م، ص81-93.

شرطية، من أن العالم من حولنا، حياتنا السياسية والاجتماعية وغيرها وغيرها... لا تتغير من حالٍ إلى حال إلا إذا غيرنا ما بداخل نفوسنا، وأن التغيير لا يتم إلا وفق هذه الطريقة الشرطية التي تأخذ شكل الشرط والجزاء، وهذا متسق مع حقيقة اطراد السنن التاريخية وشموليتها وثباتها. وهو ما يقول أنه ما حدث الأول "الشرط" حدث الثاني "الجزاء"، هذه الصيغة لا تتبدل أبداً. وكثيراً ما يورد القرآن الكريم هذه الصيغة للسنة التاريخية مثل قوله تعالى:﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[123]

وهذه الآية بينت بلغة القضية الشرطية ربطت بين أمرين، بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله، هذا القانون التاريخي أيضاً مبين على شكل القضية الشرطية، فهو لا يبين أنه متى يوجد الشرط، ولكن يبين متى ما تم الشرط تم الجزاء. وكذلك قول الله:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[124]. تكشف الآية عن ارتباط أحوال الحياة . ظهور الفساد الشامل . بأعمال الناس وسعيهم، وأن فساد الناس يوقع الفساد في الأرض. فهي مصاغة على شكل القضية الشرطية، بمعنى أنه متى مافسد الناس خربوا الأرض.

122 سورة الرعد: الآية 11.

123 سورة الإسراء: الآية 16.

124 سورة الروم: الآية 41.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريَّة الجزائريَّة الديمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

2/ السنن على شكل اتجاهات

وهو شكل من السنن التاريخية مصاغة على شكل اتجاه طبيعي لا على شكل قانون صارم، وهنالك فارق بين الاتجاه والقانون، ذلك أن القانون كما نتصوره هو سنة لا تقبل التحدي من قبل الإنسان، لأنها قانون من قوانين الكون والطبيعة فلا يمكن للإنسان أن يتحداها، فالإنسان يمكنه أن يتحدى القوانين التشريعية ولكنه لا يمكن أن يتحدى القوانين الطبيعية والسنن الموضوعية، مثلاً لا يقدر الإنسان ألا يجعل الماء لا يغلي إذا توافرت شروط الغليان. هذا مانتصوره عادة عن القوانين والسنن وهي إلى حدٍ ما صحيحة، ولكن هنالك من السنن التاريخية التي تحمل قدراً من المرونة بحيث أنها تقبل التحدي ولو على شوطٍ قصير، ولكنها لا تقبل التحدي على شوطٍ طويل، فالاتجاهات هي سنن مرنة يمكن أن تتحدى ولكنها تحطم المتحدي سنن التاريخ نفسها، فمثلاً هناك اتجاهات موضوعية لإقامة العلاقات بين الذكر والأنثى، فهي سنة صيغت على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون، وذلك لأن التحدي لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن، كما تحداها قوم لوط بينما لم يكن في إمكانهم تحدي سنة غليان الماء بأي شكلٍ من الأشكال.

ويعتبر القرآن أن الدين من أهم نماذج هذا الشكل من السنن . شكل الاتجاه الطبيعي . إذ أن الدين ليس تشريعاً فقط، وإنما الدين كفطرة أي كسنة

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X


المجلد15 / العـدد: 1 (2021)، ص 13- 59
Vol 15 / N°: 1 (2021), page 13- 59

من سنن التاريخ، موجود في صميم تركيب الإنسان يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[125]

هنا لم يعد الدين مجرد تشريع من أعلى وإنما الدين هنا فطرة للناس، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه﴾ هي إشارة إلى أن الدين سنة من سنن التاريخ وأن أية مخالفة للدين هو تحدي لسنن الله التاريخية، ولكن ممكن أن تخالفه لمدىً محدود ولكن ليس على الدوام.

---

125 سورة الروم: الآية 30.